استباحة حياة المدنيين العراقيين.. إلى متى؟

صوت العراق: د. كاظم المقدادي *

اخيرا، وبعد صمت طويل، تذكر الامين العام للأمم المتحدة كوفي عنان واجبه تجاه الانسان العراقي، بعدما نسي ما نص عليه الاعلان العالمي لحقوق الانسان في مادته الثالثة، من ان لكل فرد الحق في الحياة، وما اكده المعهد الدولي السياسي، في مادته السادسة، حيث نص على ان لكل انسان الحق الطبيعي في الحياة، وعلى القانون ان يحميه، فأبلغ مجلس الأمن الدولي، في تقرير عن العمليات الانسانية التي أنجزتها منظمته في العراق، بأن حق المدنيين العراقيين في الحياة لا يحظى بالحماية اللازمة، وان هذا الحق هو ضحية عوامل عديدة، مثل الارهاب، والجريمة، والتجاوزات العسكرية، مشيرا الى ان اكثر من ٨٠% من نحو ١١٠٠ جثة تسلمها معهد الطب الشرعي في بغداد خلال شهر تموز الماضي حملت آثار "الموت العنيف"، وقد تجاوزت معدلات الشهور السابقة. وجاء في تقريره أن هذه الارقام تدل على تدهور مضطرد، وتوفر مؤشرا قويا على غياب الحماية لحق الحياة، الذي يهيمن على العراق في هذا الوقت. واوضح أنان بأنه فضلا عن هجمات المسلحين، فأن هناك قلقا متزايدا بشأن العمليات العسكرية التي تنفذها القوة المتعددة الجنسيات بقيادة الولايات المتحدة، والتي أفضت الى حدوث وفيات وإصابات وتشريد بين المدنيين بسبب إستخدام القوة بشكل مفرط، او يفتقر الى التمييز فيما يبدو - على حد تعبيره. وطالب أنان في تقريره الحكومة العراقية أن يضمن قطاعها الأمني استخدام القوة بشكل مناسب ومشروع، وأن تحمي حقوق الانسان والحريات الاساسية لجميع المواطنين العراقيين.

الى هنا ولا اعتراض لنا على تقرير السيد امين عام الامم المتحدة، لا بل نثمنه، ونتفق معه، ونؤيده، ونشكره عليه، رغم نواقصه. فلم يتضمن احصائيات دامغة على انتهاك حق الحياة في العراق وتهديده وإستباحته، ومنها قتل المدنيين، الذين يسقطون يوميا ضحايا للعمليات الارهابية، كالعملية الاجرامية التي حصلت في حي الكاظمية، في ذات اليوم الذي قدم فيه، أنان تقريره، واستهدفت الناس البسطاء، فراح ضحيتها اكثر من ١٢٠ قتيلا واكثر من ٢٠٠ جريح بريء، جلهم من ارباب الأسر من العاطلين عن العمل والكسبة، الذين تجمعوا في احدى الساحات هناك بحثا عن عمل ولو ليوم واحد لسد رمق أطفالهم، الذين ينتظرون عودتهم في نهاية النهار على أحر من الجمر. وقبل ذلك جريمة المسيب، التي راح ضحيتها المئات من الأبرياء. ولم يشر التقرير الى العمليات الارهابية التي إستهدفت الاطفال، ومنها ما حصل في حي العامرية ببغداد، حيث حصد عمل ارهابي واحد، في ساعة واحدة، ارواح اكثر من ٣٤ طفلا صغيرا، وأصاب العشرات ممن كانوا يلعبون في الشارع امام بيوتهم. ولم يشر الى المجازر التي حصلت في الموصل، والمدائن، والتاجي، ومدن عراقية كثيرة، حيث صفيت جسديا عوائل بكاملها. ولا الى خطف وذبح عشرات المئات من رجال حفظ الامن، واغتيال المئات من اساتذة الجامعات وموظفي الدولة، الذين يؤدون واجباتهم في العراق الجديد.. ليست هذه الجرائم استباحة لحق حياة المواطن العراقي؟!.

لقد طالب السيد امين عام الامم المتحدة الحكومة العراقية بحماية حقوق الانسان لجميع المواطنين العراقيين، وهو محق بمطلبه المشروع هذا. فالحكومة الحالية أثبتت بأنها ضعيفة في إجراءاتها الأمنية، خاصة المتعلق منها بحماية ارواح المواطنين، وضعيفة في ردعها للمجرمين، مما شجع على تكالبهم. ويبدو ان المهمة اكبر من امكانياتها وقدرتها.. بيد ان السيد انان لم يطالب القوات المحتلة او القوات المتعددة الجنسيات "لم تنشر وكالات الانباء، لحد إعداد هذه السطور، ما يؤكد العكس" بضمانات والتزامات لحماية هذا الحق من جانبها. وإن صح ذلك فهو مأخذ كبير على تقريره، ذلك لأن هذه القوات، أيا كان أسمها، إرتكبت الكثير الذي انتهك وامتهن، بل وهدد على نحو صارخ، وأستهان بحياة المواطنين العراقيين، وهدر حياة المئات منهم.

ثم.. أما كان الأجدر بالسكرتير العام للأمم المتحدة ان يطالب المجتمع الدولي، الذي يتفرج على الجرائم التي تقترف يوميا في العراق، وبشكل بشع، ولم يحرك ساكنا لحد الآن، ويطالب الدول المجاورة للعراق، وبعضها تشكل حدودها المعبر الرئيس للارهابيين، بإجراءات حازمة لمنع التسلل الى للعراق، وتقديم المساعدة للحكومة العراقية المنتخبة في مكافحة الارهابيين ووضع حد لجرائمهم بحق المدنيين الأبرياء من الاطفال والنساء والرجال، الذين يقتلون يوميا بجرائم التفجيرات والمفخخات والأغتيال العشوائي!.

واخيرا ما الذي قدمته الامم المتحدة وستقدمه لوضع حد لمآسي العراقيين وفواجعهم المتواصلة، والى متى تستمر إستباحة حياة الأبرياء منهم؟!.

* كاتب واعلامي عراقي مقيم في ستوكهولم.

الشهداء والإرهاب

الدكتورة انتصار يونس أحمد العمري *

قبل البدء بالحديث عن تفاصيل الإرهاب، لا بد لنا من معرفة وتحديد معنى الإرهاب مع بيان حدوده، فكلمة الإرهاب Terrorism لم يتبلور مضمونها الا في القرن الثامن عشر حيث ظهرت عام ١٧٩٤، ويلاحظ انها مشتقة من كلمة Terror اي بمعنى يرتعد و يرتجف، والفرق بينهما يكمن في التشديد على المضمون السايكولوجي الاجتماعي - السياسي.

ويمكن القول ان الإرهاب على نوعين، الأول.. الإرهاب للأقوياء المستبدين، ويعبر عنه "بإرهاب الظالم"، اما النوع الثاني فهو إرهاب الضعفاء وقد يدخل ضمن هذا النوع صنف آخر هو إرهاب الثوريين وهذا ما يسمى بـ"إرهاب المظلوم".

وقد تركنا جانبا، الفارق الجوهري في المضمون بين كلا النوعين من الارهاب، لأن المرتكزات الأساسية للإرهاب السياسي هي واحدة وتتضمن بمحتواها العنف المادي والنفسي والترهيب او "التخويف"، وامكانية استعمال الإرهاب كإجراء تكتيكي ضمن مخطط سياسي وعسكري شامل، ويتمثل ذلك بصورة الاغتيال والإعتداء علي الأملاك وتفجير السيارات وممارسة التهديد، وهذه تعتبر بحد ذاتها أبرز أدوات الإرهاب، ورغم التعريفات المتعددة للإرهاب، الا انها تبقى قاصرة على التمييز القاطع والجدي بين العنف الذي تمارسه الفئات المسحوقة او المحتلة أرضها او فئة ثورية ضد حكم طاغ وفاسد، وبين العنف الذي تمارسه قوى وحكومات دكتاتورية أقوى تسلطا واحتلالا وتعميم للفاشية.

ومن ابرز الحقائق هنا، ان فكرة الإرهاب الدولي او الحكومي اصبحت تهدد العالم كله بالخطر.

والجدير بالذكر ان مشروع قانون مكافحة الإرهاب يصف الإرهاب بأنه فعل إجرامي يستهدف اما فردا أو جماعة، والغاية منه هو الإخلال بالأمن والاستقرار في البلد.

والعمل الارهابي القصد منه هو مهاجمة الناس افرادا وجماعات، ونهب الاموال والأراضي التابعة للأفراد والدولة بالقوة.

ومن الواضح لنا ان نتيجة هذه الاعمال واضحة لأنها جميعها مؤدية بالتالي الى القتل والسلب والاغتصاب للأفراد والجماعات دون الاخذ بنظر الاعتبار هوية هؤلاء الأفراد والجماعات، وكونهم أبناء هذا الوطن.. ولديهم عوائل!، هذه تساؤلات نسأل بها هؤلاء الارهابيين، فما بالكم بالقتل وانتم لا تبصرون.

انما القصد من كل هذه الاعتداءات واستخدامهم الاجهزة المتفجرة والحارقة والاسلحة النارية الفتاكة هو إزهاق أرواح هؤلاء الناس الأبرياء "الشهداء" الذين لهم مكانة ومنزلة عند الله سبحانه وتعالى، كما ان بث الرعب وخلق البلبلة بين الناس وتفخيخ اليات واجسام بشرية، حيوانية الى آخره.

واستخدام مواد كيمياوية سامة أو مواد مشعة أو غير ذلك أمور تصب كلها في خانة خلق الإرهاب، كما إن الخطف والاحتجاز ماهي إلا عوامل تدل على تهديد الأمن والوحدة الوطنية.

مما يتضح لنا أن التخطيط للجريمة أمر بشع، حتى أن الشريعة الإسلامية والأديان السماوية بريئة من هذه الأفعال المنحطة التي تخلق الفوضى وعدم الطمأنينة، وهذ مما يدل على عكس مبادئ واخلاقيات الإسلام والديانات الأخرى التي تدعو الى السلام ولا تسمح بمثل هذه المحطات البشعة وتدمير الإنسانية التي تشمل بمحتواها الإنسان وقدرته على فعل الخير والمحبة والسلام.

وبما أن العراق منطلق الى نظام ديمقراطي تعددي اتحادي يقوم على سيادة القانون وضمان الحقوق والحريات، لهذا يمكننا القول بأن للإرهاب طريق محجوم.

وأخيرا وليس آخرا، أن معاقبة المحرض والمخطط والممول وكل من يقدم على أي نوع من أنواع الإرهاب أو ما يسمى بالخطط الإجرامية فعقوبته في الدنيا والآخره ليس لها مثيل والله خير الناظرين.

* إهداء الى أخي الشهيد الخبير السياسي والعسكري الدكتور مازن يونس أحمد العمري الذي ولد واستشهد وطنيا لهذا البلد "العراق الحبيب" على أيدي الغدر والخيانة والى كافة شهداء أبناء وطننا الحبيب والى كافة شهداء العالم نتيجة الإرهاب.

العراق.. وكلام المثقفين: كلمتان: الأولى عنف.. والثانية ديمقراطية

إيلاف: جاسم المطير

تبدوان هكذا ببساطة واحدة بجانب الأخرى وما يسبقها كلمة العراق ليصبح عنوان الكتاب هكذا "العراق.. عنف.. ديمقراطية" لمؤلفه عبد المنعم الأعسم.. الكلمتان تبدوان بالنتيجة معنى واحدا "العنف والناس العراقيون في تجارب الدنيا المعاصرة" كما لو وضعنا كتابا قديما عنوانه "كيليوباترا وأنطونيو" في فوضى إمبراطورية قديمة فيها أحلام عن أغصان زيتون وسنابل قمح، لكن لا ننسى ان بينهما مجموعات قصص كثيرة، منها قصة غرام وقصة حرب وقصة هزائم وقصة انتحار وقصة سقوط دولة وانهيار مرحلة تاريخية مهمة.

ذات ليلة في أواخر تموز الماضي التقيت بالصديق الصحفي عبد المنعم الأعسم في لندن - كان زميلا قديما لي في سجن نقرة السلمان الصحراوي إبان ستينات القرن الماضي - وقضينا أياما وليالي عديدة، معا، انتهت قبل سفري بحصولي على هديته الكريمة وهو كتابه السياسي الأول المعنون "العراق.. عنف.. ديمقراطية" وقد انتهت من قراءته الليلة البارحة. الكتاب من منشورات دار هافانا للطباعة والنشر - لندن لكن طباعته تمت في شركة الشمس للطباعة المحدودة في بغداد. في الحقيقة لم يكن سيئا التفكير في طبع الكتاب "٣١٢ صفحة" ببغداد لسهولة نقله وتوزيعه هناك خاصة ان الكتاب يضم مجموعة مقالات تتناول احداثا وقعت بعد سقوط نظام صدام حسين كما تناول سيرة وقائع شخصيات عراقية معروفة أو مغمورة، وهي بدون شك تجعل القارئ في حقبة صعبة من التاريخ العراقي شبيهة بالتاريخ المغولي او الجاهلي وبمعارك شبيهة بقصص العنف والحروب في زمن كليوباترا وانطونيو ولكن بوسائل وأدوات وأساليب عصرية مأخوذة من مسلسلات عصر الإرهاب في القرن الحادي والعشرين، كإننا نعيش في زمن الألفية الثانية وليس الثالثة حيث يخرب كل مبنى وكل بيت بزلازل التفجيرات المفخخة حين يسأل عبد المنعم الأعسم بمقالته المعنونة: من يفجر الكنائس في العراق تعالوا نجيب على هذا السؤال ص ١١٠.. أو حين تعد أو تنشر أقاويل مزيفة لترتفع اسعارها ص ١٧٢.. أو حين تغتال فضائية عربية كبد الحقيقة في العراق الجريح على أرضه ص ١٧٨.. أو حين يجري التأويل الإسلامي على حادث التمثيل بجثث قتلى أميركان في الفلوجة ص ٤٢.. أو حين يجري التشريح الأول لدولة الديمقراطية في زمن احتلال ص ١٣٠.. وفي الكتاب الكثير من القصص عن العنف والديمقراطية في العراق، وفيه العديد من التساؤلات التي تفتح جبهات كثيرة وأبوابا كثيرة للحوار حول ما يجري في بلاد النهرين الهادئين.

من ظواهر العصر الحديث في العراق ان من الصعب على الكثير من الكتاب والصحفيين والمحللين السياسيين ان يعرفوا وفقا لقياس الرأي العام ماذا يريد الناس العراقيون من حكومتين مؤقتتين ومن حكومة انتقالية.. ماذا يحبون، وماذا يكرهون، وماذا يطلبون، وما الذي يحلمون به.. لأن هناك شعورا عاما بأن تفوق الإرهابيين في الشارع العراقي يعادل حياة العراقيين بعد سقوط نظام صدام حسين ويعادل امتيازات الديمقراطية التي يحلمون بها بل التي كانوا يحلمون بها منذ أكثر من ثمانين عاما.

كتاب الأعسم حديث الصدور جمع فيه بعض ما تدفق في إنتاجه السياسي - الثقافي عبر حرفته الصحفية وسعته النقدية في كتابة عموده الصحفي اليومي الذي تدرب عليه منذ عمله قبل سقوط النظام في جريدة الزمان اللندنية وفي جريدتي النهضة والاتحاد البغداديتين في ما بعد.

ماذا يمكن ان يسترعي الانتباه في هذا الكتاب، وبماذا يمكن تمييز هذا الكتاب؟.

يقول المؤلف بقلمه عن كتابه نفسه في صفحة الغلاف الخارجي: "ألفت النظر الى ان فضيلتي الوحيدة في تحويل تلك الخواطر الى سطور تتمثل في المعاينة عن قرب لما مر علينا من أهوال وجيوش وحكومات وبرابرة واستحقاقات، فالموضوعات التي عالجتها هي التي كتبت نفسها من حبر الدماء والدموع والآهات العراقية النزيهة، وهي من جهة ثانية لا تعدو عن كونها ذاكرة سياسية يومية لأحداث عاصفة هبت على أرواحنا، فمزقتها، وأعادت تكوينها على النحو الذي نعيشه، وهي من جهة ثالثة، مقالات انتقالية، تستمد هذه الصفة من مخاض انتقال العراق من الجحيم الى المجهول..".

ربما كان في قوله هذا شيء من الفخر المملوء بالآمال فهل كان في كتابه شعلة مضيئة لأسلوب العمود الصحفي العراقي..؟.

لابد من القول أولا ان الصحافة العراقية ما شهدت طوال سني حياتها كتابا عزفوا على قيثارة العمود الصحفي إلا القليل ممن تركوا شعلة وهاجة في الصحافة العراقية انتهت بالقتل "عبد الجبار وهبي" أو التشريد "شمران الياسري" أو السجن لكثير من الكتاب، أو بالترهيب "لطفي بكر صدقي ومحمد حسن الصوري" وغيرهما.

في صحافة اليوم كثير من الاقلام تستعرض آراءها بعمود صحفي يومي أو شبه يومي، منهم عبد المنعم الأعسم الذي أقحم نفسه بجرأة في هذا الفن العسير خاصة بعد ان اصبحت الصحافة نفسها تدور في مدارس فلسفية جديدة ان استولت عليها ساحرات الانترنيت.

الآن يأتي السؤال هل كسب الأعسم رهانه..؟.

ربما الجواب متروك للقراء أنفسهم.

لكنني أحاول هنا ان اظفر بمبادرة الإشارة بإيجاب حول نصوصه المنشورة في كتابه إذ تستدعي التوقف عند كلماته التي خاطر بها للحصول على أمنيته بكسب سعادة الرهان في معاني ما كتب في عموده اليومي، بمستويات هذا المعنى أود بعجالة الإشارة الى ما يلي:

1. في كلمات عموده اليومي وجدت صناعة الرومانتيك الصحفي المعاصر فهو يضع أفكاره الحرة بالتكافل مع القارئ الحر بمعنى انه لا يريد بما يكتب ان يصادر الرأي الآخر ولا يريد ان يصادر حق القارئ في القناعة التامة.

2. تدور كلماته اليومية في السن الناضجة ولا يحاول فرض دورتها الخصبة على عقول القراء بمعنى انه يبتعد عن مخاطر فرض وصايته الفكرية على احد.

3. عموده اليومي ليس فيه احتشاد أو ثرثرة بل تسيطر عليه الكلمة الجميلة وفيها مفردة اللذة والمتعة.

4. انتصار كلماته يأتي اولا من مثله الأعلى في الكتابة على ارض حرة من اجل قارئ حر بين شعب حر.

5. لا يضع نفسه وصيا على احد وليس ناطقا باسم احد فهو يخاطب الليبراليين والديمقراطيين والاشتراكيين والوطنيين وكل من يعمل من اجل الوطن والشعب.

6. لا يضع نفسه وحده في مركز الحق أو الصواب، ولا يريد ان يضع أفكاره في المركز الأعلى والقراء خاضعين لأفكاره.

7. كل كلمة في عموده اليومي لا تنطلق من رؤية "الأنا" بل ينطلق من التكافل الفكري الحر مع "هم ومع "أنت".

8. أما النقطة الثامنة في اسلوب وخطاب عبد المنعم الأعسم فهو إنه يستشرق دائما الى شيء آخر في المستقبل هو رمز لزمان عراقي جديد وهو رمز لعالم إنساني مفعم بأسطورة انتصار إنسان القرن الحادي والعشرين على كل شيء يريد إيقاف عجلة الزمان عن الدوران فكل ظلم وكل ظلام يمضيان، برأيه، الى منتهى.

في مستوى الواقع الحالي يبدو العراق غابة من الفوضى والإرهاب ولا قيمة لدم الإنسان فيه بينما ينهض الكتاب والمثقفون فيه مسرعين يتعلقون بالمعارف من اجل ان ينيروا الدرب لشعب يريد أعداؤه بوسائل الإرهاب والعنف، حجب نظره عن المستقبل وعن الديمقراطية.

لا تستولي على عبد المنعم الاعسم في كتاباته غير الكلمة الحرة التي تستحق عظيم الاحترام.

إلى من يهمه الأمر/ ٣

ماء زلال.. ووجه حسن.. وعضلات مفتولة!

طلال فكتور/ كركوك

الماء هبة الله سبحانه الى الإنسان وكل المخلوقات. بدونه لا تستمر الحياة نرتوي منه ونغتسل به. يدخل في كل تركيبة غذاء. متوفر في العراق بفضل نهري دجلة والفرات الخالدين وهما نعمة لم تحصل عليها الكثير من شعوب الأرض فهناك جفاف على مدار السنة في دول عديدة تؤدي الى مصرع الملايين من البشر. نعمة لا يعرف الكثير من الناس معانيها لأنها متوفرة أمامنا ومعنا باستمرار. نعمة كبيرة تبددها أحيانا كثيرة ونسرف في تبذيرها. ودائرة الماء تبذل الجهود الكبيرة وبأموال طائلة لتوفير المياه الصالحة للشرب الى المواطنين مشكورة. وبعض المواطنين والمواطنات مع الأسف الشديد يبددون المياه الصالحة للشرب لداعي أو بدون داع. ومن مشاهداتي وخاصة في فصل الصيف في العاصمة بغداد ومدينة كركوك وفي المناطق الراقية خاصة أرى بعض الأخوة في المساء ماسكا خرطوم المياه العذبة أمام داره مرتديا فانيلة عليها عبارات باللغة الإنكليزية لا أفهم معانيها وصورا لأناس غرباء وسروالا قصيرا طبعت عليه أنواع الزهور في العالم. يستعرض عضلاته المفتولة أمام الرايح والجاي والرايحة والجاية. ويرش الماء على الحديقة الخارجية للمنزل والشارع أمام داره بحجة ترطيب المكان تمهيدا لسهرة جميلة على نسمات الهواء العليل البارد. ناسيا أو متناسيا ان عمله هذا يؤدي الى ضعف أو إنقطاع الماء عن الأحياء الأخرى المجاورة ليبدأ الناس هناك برحلة. كبيرهم وصغيرهم امرأة ورجل حاملين على أكتافهم القدور والسطول للحصول على الماء من السيد الكريم الذي يرش الماء أمام داره على الشارع المبلط بالإسفلت لعل تنبع شجرة هنا أو هناك في الشارع العام يستظل بظلها الواقر. وهناك بعض العوائل الأخرى واقتصادا بأجهزة مضخات الماء في المبردات ترفع الوتربمب وتضع خرطوم الماء أو (الصوندة) مباشرة على حلقة المبردة ليجري الماء تحت المبردة لساعات طويلة شاقا لنفسه نهرا ثالثا جديدا في العراق لم تتفق الجمعية الوطنية على تسميته بعد. أما الذين يغسلون سياراتهم أمام دورهم فحدث ولا حرج فحصتهم من ماء المدينة أكثر من النصف مضافا إليهم معارض بيع السيارات الذين لو استخدموا ماء النيل لربما نفد بظرف شهر. في الوقت الذي يشح الماء في الأحياء الأخرى وينقطع فتتوقف المبردات عن العمل فتخرج العوائل بالكامل للجلوس أمام الدار لعل نسمة هواء تمر عليها ماسكين بأيديهم مكيفات الهواء المحلية الصنع وروحي يا ذراعي يمينا ويسارا ولا يفوتني أن أقول ان هذه المكيفات المعقدة تكنولوجيا هي عبارة عن جلادات الكتب والدفاتر المدرسية للأولاد. لابأس ففي فصل الصيف لا توجد مدارس ولا نريد علما. الآن نريد هواء أيها السيدات والسادة أيها الأخوة والأخوات حبوا للآخرين ما تحبون لأنفسكم. أشعروا بآلام الآخرين ولا تدعوا الأنانية تأخذكم. فهم أخوة لكم في الإنسانية والمواطنة العراقية. مع اعتزازي الشديد لكل من مسه كلامي هذا وأخيرا أضع رسالتي على منضدة السيد مدير دائرة الماء وأمانة بغداد أناشدهم فيها باتخاذ العقوبات المناسبة بحق كل من يبذر الماء. والسلام عليكم.

تحديات العولمة في عالم بلا هوية

ناصر الربيعي/ بغداد

كيف ننظر للهوية الوطنية في عالم بلا هوية وهو ينقاد الى ذلك عبر سلسلة تحولات بنيوية عميقة ما انفكت تفعل فعلها في الحياة المعاصرة ملقية آثارا حادة على المفردات اليومية للإنسان المعاصر وبين العلاقة الإشكالية المتفجرة بين المركز والمحيط، بين مراكز المال والاقتصاد والأبحاث والقوة العسكرية وبين الأطراف المستهلكة لثمار التكنولوجيا المبتلاة بالمعضلات الاقتصادية والمعرفية ويتراجع معدلات النمو وثقل الديون والإنشغال بالمشكلات الطائفية والعرقية والمشكلات مع دول الجوار بين هذا وذاك تلوح الأسئلة الأكثر إلحاحا تلك التي تعنينا في بلاد الجنوب عموما وفي الوطن العربي والعالم الإسلامي بشكل خاص.

من هذا المنطلق نقدم العنوان التالي "الوطنية في عالم بلا هوية: تحديات العولمة" والذي يتكون من أربعة محاور رئيسة تحمل عناوين: تحديات الألفية الثالثة والعولمة- الإعصار الخفي والهوية والإنتماء والأمل والعمل، وخلال هذه المحاور الرئيسية التي تشكل مفاصل البحث عالج كل منها مسألة ملحة من المسائل المطروحة في هذا السياق.

ان ثورة هائلة في نطاق المعلومات وطرق تنظيمها وتبويبها وتوظيفها قد وقعت لم تشبهها ثورة إلا إختراع الطباعة هذه الثورة تتمثل في القدرة الهائلة لـ "السوبر كومبيوتر" والقوة المحركة الأساسية له وهي "المايكرو بروسيسر" انها تشبه ثورة الطباعة ولكنها مضروبة في آلاف بل ملايين المرات.

فلاول مرة يتضاعف حجم المعرفة الإنسانية مرة كل ١٨ شهرا بل ان قدرة الكومبيوتر تتضاعف هي الأخرى مرة كل ١٨ شهرا ويصغر حجمه الى النصف مرة كل ١٨ شهرا وبالتغيير والتطوير الهائل الذي يجري الآن على المايكروبروسيسر فان احتمالات هذه الثورة لا حدود لها فهناك القدرة الآن على إنتاج شريحة في حجم الظفر تتسع لما يحتويه ١٠٠ مليون الى مليار ترانزستور وهناك ما يسمى الآن بالذاكرة الهولوغرافية الذاكرة ذات الأبعاد الثلاثة التي تستطيع ان تختزن المعلومات في طبقات من الكريستال عن طريق تقاطع شعاعين من الليزر في زوايا مختلفة ويمكن ان تحتوي ما يوازي ١٠ جيجابايت في حجم قطع السكر الصغيرة!، وفي الفصل الثاني يعرض المؤلف للثورة التكنولوجية التي تلاحقت إكتشافاتها في كافة مجالات الحياة حيث تناقصت المدد البينية بين الإكتشافات نظريا وتطبيقها عمليا وصناعيا ثم تسويقها تجاريا.

لقد بلغ الذكاء الصناعي مديات متقدمة بما وفر أرضية متطورة للإنتاج الصناعي وذلك من خلال توفير المعطيات المعرفية التي تجري معالجتها وتقديم النتائج التي تتميز بالجودة والكفاءة والدقة.

وينسحب ذلك على ما طرأ من اكتشافات في الخارطة الجينية ومن ذلك ما تمكن العلماء ان يحققوه بأن جمعوا وقطعوا وأعادوا تركيب ولصق وإعادة صياغة مواد جينية عبر الحدود "البيولوجية" للكائنات الحية بين النبات والحيوان والإنسان عبر سلالات مختلفة ونوعيات متباينة.

هذا عدا المستحدثات الهائلة التي طرأت على ميادين العلاج والتشخيص للأمراض وتحديد أماكن بعض الأمراض على الخارطة الجينية وكذلك الأبحاث المتعلقة بالمواد فائقة التوصيل وتراكم المستحدثات التكنولوجية بشكل مضاعف كل يوم لكنه يشخص مسألة الآثار الجانبية للتكنولوجيا المستحدثة إذ برزت الى السطح ظاهرة عرفت بـ "التكنوبولي" وهي سيطرة التكنولوجيا على الثقافة والحضارة وما ترتب عليها من ظواهر طالت التركيب الأسري وعلاقات الأفراد وبروز ظاهرة العنف والجريمة وارتفاع معدلاتها وكذلك زيادة معدلات الإنتحار لقد أصبحت وسائل الإتصال السمعية والبصرية والألعاب الألكترونية أداة لترويج قيم جديدة حملت معها ظاهرة زوال الحاجز بين الوهم والحقيقة واعتياد الإنسان على مظاهر العنف والقسوة فضلا عن انبهار الناس بهذه التكنولوجيا وانقيادهم الأعمى للإعتماد عليها.

ويمكننا ان نشير لما يسمى بـ "العالم بلا ابعاد" أو "العالم الإعتباري" الذي يقترن بالثورة الألكترونية والتفجر المعرفي وثورة الإتصالات والتقدم التكنولوجي المذهل لتعد المسرح الكبير للمجتمع الإعتباري الذي قطع مراحل عدة حتى وصل الى ما وصل إليه في اختراق حاجز الزمان والمكان والسيطرة بلا وجود والاختراق بلا حدود والسيطرة على العقول بلا حاجة الى قيود وخلال هذه المسيرة التاريخية الطويلة تطورت المجتمعات ونشأت الحضارات وتقدمت الدول والإمبراطوريات وكان التقدم في شكل موجه ترتفع حينا وتنخفض أحيانا ولكن التقدم الحقيقي كان يحدث حينما تتوافق التقنيات أو التكنولوجيات السائدة أو المكتشفة مع النسق القيمي أو الأيديولوجيات السائدة.

أما الحديث عن العولمة أو الكوكبية- الإعصار الخفي- فيمكن تشخيص اربعة محركات اساسية لهذه القضية تتمثل في: الثورة التكنولوجية وثورة الإتصالات واقتصاد السوق وعولمة الإنتاج وتغير الخريطة الجيوسياسية العالمية بل يمكن التأكيد الى ان آثار العولمة لا تقتصر على تضاؤل قدرة الدولة في حماية السلام الإجتماعي ولكن الثورة التكنولوجية والمعلوماتية أدت الى تغيرات جوهرية في سوق العمل والتركيبية الإجتماعية لقوة العمل في معظم البلاد ومن ذلك إندثار مهن معينة وإحلال الإنسان الآلي والسوبر كومبيوتر محل أعداد كبيرة من القوة العاملة.

أما موضوع الهوية والإنتماءات: العرقية والوطنية والقومية، ففي هذا الصدد تنبأ عدد كبير من علماء الإجتماع ان العرقية والقومية ستفقدان أهميتهما مع الحداثة والتصنيع والإتجاه نحو الفردية وانهما في النهاية تتلاشيان كليا إلا ان ذلك لم يتحقق بل على العكس من ذلك فان العرقية والقومية تزايدت أهميتهما السياسية بشكل مطرد خصوصا في أعقاب الحرب العالمية الثانية فمثلا عند عرض مفهوم الوطنية في مصر منذ العصور القديمة وحتى زمن العولمة يمكن ان نؤكد ان التسليم بالعولمة أولى الخطوات للتعامل الايجابي والعلمي معها والتخطيط السليم لمواجهتها والعمل الشاق الذي يتعين ان نقوم به لنصبح قادرين على التعامل معها أما رفع الشعارات التي تتكر أو تشجب أو تكتفي بالرفض والمقاطعة فهي مقومات مناسبة ترشحنا ان نكون أبطالا للفرص الضائعة وتحجز لنا مكانا بارزا في متاهات التاريخ واساطير معارك طواحين الهواء. ان العولمة كنظام اقتصادي لا بد لها من إطار إجتماعي، ان القرية الكونية لا بد لها من مجتمع تربط بين أفراده وجماعاته علاقات من الإهتمام المشترك والمشاركة الوجدانية والمشاعر الإنسانية لا بد ان يكون للعولمة وجه إنساني ولا بد للنظام الإقتصادي من مجتمع بشري والا تحول "القطيع الألكتروني" الى وحش كاسر وتحولت القرية الكونية الى غابة.

أما "الأمل والعمل" فهي باختصار صيغة توفق بين اعتبارات العولمة ومتطلباتها وتربطنا بقافلة الألفية الثالثة ومسيرة الإنسانية المتقدمة وتحافظ لنا في الوقت نفسه على الميزة النسبية التي يتمتع بها المجتمع المحلي من تماسك اجتماعي وانتماء وهوية. ولا بد في إطار مواجهة العولمة من تعميق إطار المشاركة والديمقراطية وهو شعار العصر ولا بد من تعميق مناخ ديمقراطي يسمح بالخلاف في الرأي والرأي الآخر ويشجع على الحوار ويدعو الى ممارسة النقد والنقد الذاتي.

وفي محور ثقافة العولمة يذهب العديد من المنظرين الى ان العولمة ولو انها نظام اقتصادي في المقام الأول وسياسي اجتماعي في المقام الثاني إلا انها بلا شك تحمل ثقافة جديدة بصرف النظر عن انطباق المفهوم العلمي أو الأخلاقي للثقافة على الغزو الفكري والطوفان المعلوماتي والرموز التي تشيعها وتنشرها العولمة بكل وسائل الإتصال الحديثة فائقة القدرة، وأما عن طبيعة ثقافة العولمة فأنها ثقافة تمجد الإستهلاك وهدفها الرئيسي هو خلق أسواق جديدة وإطلاق شهوات الإستهلاك الى أقصاها حيث ما زالت أهم أهداف المجتمع الرأسمالي هو إقامة وتطوير حالة عدم الرضا المستمرة عن المنتجات الموجودة حاليا حتى تتحقق حالة من الطلب المستمر والجديد على منتجات جديدة أو نماذج مستحدثة.

ويمكن تحديد سمات رئيسية لهذه الثقافة بالإضافة الى كونها تمجد الإستهلاك فأنها ثقافة تمهد للعنف وتمجد الفردية والأنانية وانها ثقافة مادية بحتة وأنها تستهين بكثير من القيم المادية وانها تشجع على الإنتهازية والجشع والوصول.

أما محور "دور الدولة في إطار العولمة" فأن معظم مفكري العولمة والمروجين لها يقطعون بأن شكل الدول قد انقضى عمره الإفتراضي وتلاشت اسباب وجوده ويتردد تعبير نهاية الدولة الوطنية أو نهاية شكل الدول في كتابات العديد من المفكرين ويرى العديد منهم ان هناك ضرورة للتوفيق بين متطلبات العولمة وتعزيز الكيان الوطني على اساس ان الدولة لها دور أساسي يجب أن تنهض به.

ومع آثار عصر العولمة المتمثل في الهيمنة المادية وتفشي الإنتهازية والميكافيلية إلا ان ضمير العالم ما زال يطالب بأن لا نغفل عوامل القيم والمبادئ وسلوكيات التعاون والتراحم والتكامل.

إننا في حاجة الى نظرة جديدة تضع الإعتبارات الإنسانية في سياق واهتمام المجتمع الرأسمالي ليس من منطلق العمل الخيري أو لإعتبارات أخلاقية فقط وانما من منطلق الحرص على المجتمع نفسه.

ولكن ما دامت العولمة أمرا واقعا قد فرض نفسه على الأمم والأفراد فلا بديل أمامنا جميعا من التعامل مع الظاهرة بطريقة موضوعية ونظرة مستقبلية.